سكان فلسطين

ودراسة تاريخهم الجنسى

عناصر البحث :

١ — الظروف الجغرافية العامة ذات الأثر فى تعمير فلسطين بالسكان .
٢ — إنسان ما قبل التاريخ فى فلسطين .
٣ — عصر بداية المعدن : الهجرات السامية وأثرها فى تعمير فلسطين .
٤ — الهجرات غير السامية : الفلسطين — الحيثيون .
٥ — العصر الاغريقى الرومانى — بدء تشتت اليهود وتعريب فلسطين .
٦ — الشعب العربى الفلسطينى .
٧ — اليهود : انتشارهم فى العالم . وصفاتهم الجنسية .
٨ — خاتمة : ملاحظات عامة .

تقديم :

سنحاول فى هذا البحث تتبع الشعوب التى رحلت إلى فلسطين منذ أقدم العصور واستيطانها وتوزيع منازلها ، ثم استعراض صلة هذه الشعوب القديمة سامية أو غير سامية بالشعبين اللذين يتنازعان هذا القطر ، مع دراسة تاريخ تعريب فلسطين . ولا بأس من تتبع اليهود فى بقاع الأرض المختلفة التى هاجر أسلافهم إليها . أو التى اختلطوا بأهلها أو اعتنق أهلها الدين اليهودى . إذ منهم تتكون هجرات اليهود الحديثة إلى فلسطين . وبالتالى تتكون جمهرة اليهود فى الأقاليم التى يتركزون فيها . فى السهل الساحلى وسهل مرج ابن عامر .

وسنستعين فى هذه الدراسة بحقائق التاريخ . التى نحصل عليها من الوثائق التاريخية أو استنتاجاً من الحفائر الأثرية . أو ما تواتر إلينا من أبناء الماضى عن طريق العهد القديم من الكتاب المقدس . هذا الكتاب الذى جمعت أسفاره

فى فلسطين نفسها ابتداء من القرن الثالث عشر ق. م تقريباً . ولم يكتمل إلا قبيل ظهور المسيح عليه السلام (١) . على أن الباحث يستعين على فهم الإشارات التاريخية الواردة فى هذه الأسفار بنتائج الحفائر التى أجريت فى فلسطين وغيرها من أجزاء الشرق الأدنى . وبأبحاث علم الأجناس والسلالات . غير أن طبيعة هذا البحث تجعلنا أكثر اعتماداً على نتائج علم الأجناس والسلالات من جهة ، والأخذ بمنهج البحث الجغرافى من جهة أخرى . وهكذا سنأخذ بأطراف علوم ثلاثة تهتم بدراسة الإنسان ونشاطه من وجهات نظر متعددة ومتكاملة لا سبيل إلى الفصل بينها . وهى التاريخ وعلم الأجناس والجغرافيا .

١ – الظروف الجغرافية العامة ذات الأثر فى تعمير فلسطين بالسكان :

لاشك أن الظروف الجغرافية العامة التى تحيط بفلسطين لعبت دوراً رئيسياً فى توجيهها الجغرافى واستقبالها للقبائل والشعوب فى الأزمنة القديمة . ولذلك يحسن بنا أن نبدأ بالإلمام بهذه الظروف الجغرافية التى تعين على فهم حركات هذه القبائل والشعوب القديمة . ولعل أهم هذه الظروف الجغرافية من وجهة نظر علم الأجناس هى الموقع الجغرافى العام . ومظاهر السطح والتضاريس . ومميزات المناخ الرئيسية .

أما عن الموقع الجغرافى العام فان فلسطين تطل على الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط لذلك لم يكن غريباً أن تتعرض للموجات البشرية إذا اضطربت فى الركن الشرقى لهذا البحر . كما أنها تقع عند القرن الجنوبى الغربى « للهلال الخصيب » بين الصحراء وبين البحر من ناحية . وبين أكبر مراكز الحضارة القديمة فى وادى النيل وحوض دجلة والفرات من ناحية أخرى. أى أنها بحكم موقعها كانت معبراً طبيعياً للشعوب المتحضرة القديمة ، بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى تعبره قوافل التجارة وركاب البريد وجيوش

(١) انظر فيما يختص بتأريخ أسفار العهد القديم وبنقد قيمتها كمرجع علمى المقاليين التاليين :

Driver, S.R. & Peake, A.S. Art. Bible, O.T., Ency. Brit., vol. 3, p. 501 ff. and Stewart, A. Art. Bible, Dictionary of the Bible. Ed. Hastings. J. Vo. 1, Sth Impression, 1906, p. 290.

الغزاة بين المتنافستين القديمتين « مصر وبلاد النهرين » فكان مقدراً لها أن تتأثر — من الناحية الجنسية — بهذه الحركات العابرة للتجارة والمحاربين . هذا إلى أن فلسطين تقع بين البحر المتوسط والصحراء اللذين كانا المصدرين الرئيسيين لشعوبها فى التاريخ القديم . واللذين تجاذبا توجيهها الجغرافى على مر العصور فجعلاها جزءاً من العالم السامى القارى وقتاً ما . وضليعة فى العالم الاغريقى الرومانى وقتاً آخر . متجهة نحو العالم العربى أو متجهة — قسراً — نحو أوروبا فى عهد الصليبيين . ثم ها نحن نشهد اجتذابها نحو العالم العربى وتعرضها لليهود — الوافد عبر البحار — فى سهلها الساحلى مرة أخرى (١) .

ننتقل الآن إلى الإلمام بطبيعة سطح فلسطين ، إذ أنه يلقى ضوءاً على توجيهاتها الجغرافية نحو الداخل أو نحو البحر من جهة ، وعلى منافذ فلسطين نحو العالم الخارجى ومصادر الهجرات ومنازلها فى فلسطين من جهة أخرى .

يمتاز سطح فلسطين بتوازى ثلاثة مظاهر تضاريسية كبرى فى اتجاه شمالى جنوبى وهى : سهل ساحلى يزداد اتساعاً كلما اتجهنا نحو الجنوب . ثم هضبة متقطعة متوسطة الارتفاع تعتبر امتداداً جنوبياً لجبال لبنان الغربية ، يعترضها منخفض سهل مرج ابن عامر من الغرب إلى الشرق . ثم منخفض الغور ويجرى فيه نهر الأردن الذى ينحدر منخفضاً تحت سطح البحر إلى أن يصب فى البحر الميت (١٢٩١ قدماً تحت سطح البحر) ، ثم يرتفع المنخفض ثانية — وإن كان لا يزال غائراً بالنسبة للحافتين الشرقية والغربية — فى منخفض وادى العرابة حتى خليج العقبة .

تنقسم المرتفعات الوسطى إلى قسمين : هضبة السامرة أو ساماريا فى الشمال ويفصلها عن جبل الكرمل ممر مجدو ، وعن هضبة يهوذا فى الجنوب منخفض اللبان . وهضبة يهوذا أو يهوذية فى الجنوب ، وهى هضبة انكسارية

---

(١) فيما يختص بمزايا الموقع الجغرافى لفلسطين انظر بصفة خاصة :

Smith, G.A. The Historical Geography of The Holy Land, London 1948. pp. 3-20. Ghallab, M.E.S. Constant and variable Factors in the Interrelations between the Judaea Plateau and the Maritime Plain of Palestine, Bull. Soc. Roy. de Geog. d'Eg. XXIV, 1951,

مستطيلة تنتهى من الشرق والغرب بمدرجات انكسارية تتتابع فى سرعة وعنف من الشرق نحو الغور بينما تتدرج فى سهولة ويسر بمدرجات عريضة نحو الغرب، إلى تلال شفيلاه التى تعتبر مقدمات الهضبة للصاعد من السهل الساحلى. هذا إلى أنه يفصل هضبة يهوذا عن هذه التلال وادى انكسارى طولى يمتد من شمال الشمال الشرقى إلى جنوب الجنوب الغربى . هذا الوادى كان بمثابة أرض حرام بين المملكة العبرية وبين اتحاد المدن الفلسطينية فى التاريخ القديم .

وتمتاز هذه الهضبة بأنها جيرية تأثرت بعوامل التعرية والتحات فقسمتها السيول والأنهار الفصلية العميقة إلى عدة أقسام صغيرة ومنفصلة بعضها عن البعض . ولقد استطاعت فلسطين جنوب جبل الكرمل على الأقل أن تتميز ببنيتها وتضاريس سطحها العامة وتصبح وحدة جغرافية منفصلة يفصلها نهر الأردن ومنخفض البحر الميت ووادى عرابة العميق عن هضبة شبه جزيرة العرب . ويفصلها جبل الكرمل عن سهل عكا فى الشمال كما يفصل مرج ابن عامر هضبة السامرية ويهوذا عن جبال لبنان شمالا .

وعملت مظاهر السطح على تقسيم فلسطين إلى اقليمين كبيرين هما الساحل والهضبة ولكل مميزاته الطبيعية والبشرية الخاصة. ولكل توجيهه الجغرافى الخاص . ولكل — فى تاريخ فلسطين العام دوره الخاص . فالسهل الساحلى مفتوح أمام المؤثرات البحرية . والثانية منعزلة بمنأى عن هذه المؤثرات ، أو على الأقل بطيئة التأثر بها . وجهة الأول على البحر . والثانية إلى الصحراء التى هى امتداد طبيعى لها . ليس هذا فحسب بل أنها أتت على الهضبة ومزقتها إلى أوطان صغيرة متعددة منعزلة — إلى حد ما — بعضها عن البعض الآخر ، أصلح لأن تكون منازل لقبائل متفرقة منها أن تكون وطناً لشعب واحد (١) .

وأخيراً فان فلسطين تقع بين اقليمى البحر الأبيض المتوسط والصحراء . عند العروض التى تتذبذب عندها الرياح وتتنازعها مؤثرات الرياح التجارية الشمالية من جهة . والرياح العكسية الاعصارية الغربية من جهة أخرى . ومن

---

(١) انظر بصفة خاصة

Ghallab, M.E.S. Op. Cit. pp. 201-225.

المعروف أن منخفضات أعاصير الرياح العكسية الغربية تمتاز بالذبذبة وعدم الانتظام ، فهى تختلف من حيث القوة ومدى الاتساع من عام إلى آخر . فتتفاوت كمية الأمطار من وقت إلى آخر ، بل من شهر إلى آخر فى نفس الفصل الممطر . وقد لاحظ الأستاذ هنتنجتون تفاوتاً كبيراً فى كمية الأمطار الساقطة على القدس بلغ ٤٠٪ زيادة أو نقصاناً عن المتوسط . وذلك فى الربع قرن الواقع بين عامى ١٨٨٢ — ١٨٩٩ . ثم فى الفترة بين عامى ١٩٠٣ — ١٩٠٩ . وإذا فحصنا ملخص حالة سقوط المطر فى فلسطين فى الربع قرن الأخير بين عامى ١٩٢٦—٢٧ ، ١٩٤١ — ٤٢ فاننا نجد التفاوت ظاهراً بشكل واضح . فنى وهلما مثلا — على الساحل — بلغ التفاوت من ٧ر٣١٤م فى عام١٩٣١/٣٢ إلى ٩ر٨١٩ م فى عام ١٩٣٨ / ٣٩ . وفى نابلس — على الهضبة — نجد التفاوت أبلغ مدى. من٤ر١٠٢٤م عام ١٩٢٨ / ٢٩ إلى ٣٣٩م عام ١٩٣٢ / ٣٣ . هذه الملاحظات الحديثة تميل بنا إلى الاعتقاد بأن اختلاف سقوط الأمطار من عام إلى آخر أو من عقد إلى آخر كان أقرب إلى الشذوذ عن مستوى عام ثابت منه إلى تغير كبير فى المناخ يصل إلى حد الجفاف من طرف إلى زيادة الأمطار من طرف آخر (١) .

من هذا نستطيع أن نتصور حالة شمال شبه جزيرة العرب المتاخمة لحدود فلسطين الجنوبية والشرقية ، والتى تعمرها قبائل البدو ترعى الأنعام على الكلأ الذى ينمو بعد فصول الأمطار القليلة فى الشتاء ونستطيع أن ندرك أن هذه القبائل تعتمد على أمطار قد لا تكفى لنمو الكلأ ، وأنها ذات حساسية شديدة لأدنى تغير فى كميات المطر المتساقطة . فهى قانعة مقيمة فى منازلها ما دام هناك مطر يكفى لنمو الكلأ ، ولكنها تضطرب ويتولاها القلق إذا ضعفت الأعاصير

---

(١) لا تزال نظرية تغير المناخ فى العصور التاريخية فى الشرق الأدنى موضع جدل كبير بين علماء الجغرافيا والآثار وقد عالجناها فى رسالة لم تنشر بعد وأشرنا إليها مع ذكر المراجع فى مقالين :

Ghallab, M.E.S. Constant and Variable Factors in the Inter-relations between Judaea Plateau and the Maritime Plain in Palestine. Bull. Soc. Roy. Geog. Eg. t. XVIII, 1950 pp. 201-225.

Ghallab. M.E.S. The Settlement of the Negeb. Bull. Desert Institute, Vol. 3. 1953.

وقلت الأمطار وانكمشت مساحة الكلأ فى عدة مواسم متتالية . عندئذ تصبح موارد الصحراء الطبيعية غير كافية لإطعام أهلها . فتفيض بهم ولا يجدون مفراً من الهجرة إلى بلاد الهلال الخصيب المجاورة (١) .

هكذا كانت فلسطين — وغيرها من بلاد الهلال الخصيب — معرضة لهجرات البدو النازلين على أبوابها . والذين يتسللون فرادى وجماعات تسللا سلمياً ما دامت هناك حكومة قوية فى داخل البلاد . والذين يترددون فى غزوها وقهرها إذا ظهرت عليها بوادر الضعف . وهذا ما نتصوره سبباً للهجرات السامية التى انبعثت من الصحراء من زمن إلى آخر . والتى أصابت فلسطين كما أصابت جيرانها . والتى كانت مسئولة إلى حد كبير عن تعمير فلسطين منذ بداية عصر المعدن .

٢ — إنسان ما قبل التاريخ فى فلسطين :

الآن وقد استعرضنا ظروف البيئة الجغرافية والموقع الجغرافى وهى التى كان لها أثر مباشر فى توجيه الهجرات البشرية إلى فلسطين والتى قسمت هذا القطر إلى أوطان صغيرة لمختلف القبائل والشعوب . نبدأ دراسة قصة تعمير فلسطين بالإنسان ولابد لنا هنا من البدء بأقدم العناصر البشرية أو شبه البشرية . فى الوقت الذى بدأ فيه النوع البشرى بعد حلقة التطور من الطور الشبيه بالإنسان إلى طور نوع الإنسان العاقل الذى ننتمى إليه (٢) .

أظهرت أعمال البحث عن الآثار الإنسانية القديمة . عدداً من الهياكل والعظام قرب بحيرة الجليل وفى سفح جبل الكرمل . وهذه الهياكل تنتمى إلى إنسان نياندرتال وهى لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها الأوروبية وترجع حسب عمر الطبقات التى وجدت بينها إلى عصر البلايوستوسين الأوسط . أى فى الفترة التى تقابل أواخر الفترة الغير جليدية الأخيرة . وقد وجدت هذه الهياكل مطمورة بين بريشيا لافالوازية مستيرية .

---

(١) انظر بصفة خاصة :

Toynbee, A.T. A Study of History, vol. II, pp. 16-17, London 1934.

(٢) عن تطور الإنسان وعلاقته بالعصور الجيولوجية والعصور الحجرية القديمة انظر على سبيل المثال لا الحصر

Howells, W., Mankind so Far. (1947) & Le Gros Chark, History of the Primates (1952).

أما من الناحية الجنسية فيمتاز إنسان نياندرتال الذى وجد فى مغارة السخول بأن طوله يتراوح بين ١٧٣ — ١٧٩ سم . وأنه فى هيكله العظمى وسط بين الإنسان الحديث العاقل وإنسان نياندرتال الأوروبى . وربما كان أقرب إلى الأول منه إلى الثانى . على أنه وجد فى مغارة الطابون هيكل عظمى لامرأة من جنس النياندرتال (بمعنى الكلمة) فى الطبقات السفلى . بينما وجد هيكل لشاب من نوع الإنسان العاقل ويشبه سلالة الكرومانيون الأوروبية فى الطبقات العليا . ولاشك أن وجود هذه الهياكل المختلفة التى تمثل مراحل متتابعة لتطور الإنسان ، من النوع النياندرتال إلى النوع العاقل ، يدعو إلى الدهشة ويشير إلى عراقة هذا القطر فى العمران البشرى (١) .

قبل أن ننتقل إلى عصر بداية المعدن لابد أن نشير إلى فجر العصر الحجرى الحديث وهو العصر الذى بدأ فيه استقرار الإنسان العاقل فى أوطانه المختلفة والذى بدأ فيه الإنسان ينتقل من مرحلة الجمع والالتقاط أو الصيد إلى حياة الرعى والزراعة . وقد ظهر فى فلسطين فى ذلك العصر حضارتان . تدعى الأولى بالحضارة الغاسولية فى هضبة يهوذا . وتمتاز بأنها كانت حضارة رعوية . والأخرى بالحضارة الطاحونية وفيها بدأت الزراعة فى الظهور إلا أن الحضارة الناتوفية وهى آخر الحضارات الحجرية القديمة العليا أو الحجرية الوسطى (وتقابل فى مصر حضارة مرمدة بنى سلامة وما قبل الأسرات) فإنها كانت فيما يبدو حضارة زراعية استقرارية إلى حد كبير .

---

(١) يرى كيث وماككاون أن انسان جبل الكرمل الذى يجمع بين خصائص إنسان نياندرتال والإنسان العاقل، ليس إلا مظهراً لنوع إنسانى فى مرحلة التطور نحو الإنسان العاقل بمعنى الكلمة . وأنه انفصل عن النوع النياندرتالى فى أواخر البلايوستوسين بعد ظهور إنسان نياندرتال فعلا . ولذلك احتفظ ببعض خصائصه مثل الفك الغليظ البارز والجبهة المتقهقرة والانكفاء إلى الأمام . هذا ويرى بعض الكتاب أن إنسان الكرمل خلاسى بين إنسان نياندرتال وإنسان كرومانيون .

انظر فيما يختص بالرأى الأول Keith, Si A. "A Report on the Galilee Skull in Turville-Petre" F. Researches in Prehistoric Galilee ; also Keith, Si A. & McCown, T.W. B.A.S.P. vol. 13, 1937, pp. 5-15 ; also "Mount Carmel Man" etc. Early Man, Phila. 1937, pp. 41-52.

وفيما يختص بالرأى الثانى Coon. C.S. The Races of Europe, New York, 1939. pp. 25-26. Also Davison, D. Men of the Dawn, London, 1944, pp. 200 ff.

وقد عثر على نحو ٢٠٠ هيكل عظمى من مستويين مختلفين يرجعان إلى العصر الحجرى الأوسط والحضارة الناتوفية المتأخرة وقد وجد أن الإنسان صاحب الحضارة الأخيرة يمتاز بقصر القامة طوله ١٥٢ – ١٦٠ سنتيمتر . ولا يزيد صاحب الحضارة الأخيرة هذه عن ١٦٢ سم كما يمتاز بالرأس الطويل الضيق (النسبة الرأسية ٧٢ – ٧٨) وأنه بصفة عامة أقرب إلى مميزات سلالة البحر الأبيض المتوسط ودقيق العظام رقيقها ومن الصعب التمييز بين هياكل ذكوره واناثه . وأنه متأثر بالسلالة شبه الزنجية القريبة من السلالة الدرافيدية[1] .

٣ – عصر بداءة المعدن : الهجرات السامية وأثرها فى تعمير فلسطين :

قبل أن نتحدث عن عصر البرونز الذى شاهد ازدهار فلسطين من الناحية الحضارية بعد هجرة القبائل السامية والايجية إليها والعصر الذى ازدادت فيه العلاقات بين الحضارات النهرية وكثر ارتياد أفرادها للمعبر السورى . ومن ثم ازداد اتصال فلسطين بمراكز الحضارات الكبرى . وازداد تأثرها بها . قبل أن نتحدث عن ذلك العصر يصح أن نعرض للعصر السابق له ، الذى يطلق عليه اسم عصر النحاس ، فى هذا العصر كان يعمر فلسطين قبائل يطلق عليها اسم الشعوب قبل السامية وللأسف ليس لدينا أدلة كافية عنهم ، اللهم إلا بعض إشارات فى العهد القديم وبعض جماجم بشرية ترجع إلى ذلك العهد .

يحدثنا العهد القديم من الكتاب المقدس عن تلك الشعوب التى سبقت بنى اسرائيل إلى فلسطين وأطلق عليها أسماء عديدة لعلها أسماء قبائل وجماعات منفرقة كانت تسكن هذا القطر مثل النغاليم والعناقيم والريفائيم [2] . هذه الشعوب التى كانت تسكن الكهوف وتتخذ من الجبال بيوتاً ومما يعرشون .

وقد أيدت الحفائر الحديثة رواية التوراة من أن شعوباً سابقة للساميين كانت تعمر فلسطين . إذ وجدت آثارها فى الخليل وغزة وتل تعانق واريحا

(١) انظر Keith, Sir A. (1937) op. cit. & Keith, Si A. & MacCown, F.W. B.A.S.P. (1937) op. cit.

(٢) آثرنا نقل أسماء القبائل السامية كما وردت فى النص العبرى . مع العلم بأن نهاية « ايم » فى آخر الكلمات هى علامات الجمع . وإذا شئنا تعريبها قلنا النغاليون . والعناقيون . والرفائيون .

ومجدو . ويهمنا هنا أن نستعرض الصفات الجنسية التى يمتاز بها هؤلاء القوم . ويساعدنا على تعرف هؤلاء العثور على ٢٧ جمجمة عند مدينة مجدو ترجع إلى العصر النحاسى وما بعده أو إلى ما قبل الألف الثالث السابقة للمسيح . كما وجدت خمس جماجم أخرى ترجع إلى أوائل عصر البرونز أى حوالى عام ٢٦٠٠ ق. م. وتمتاز هذه الجماجم بالرأس الطويل الصغير من طراز سلالة البحر الأبيض المتوسط والأنف البارز ذى القنطرة المتصلة بالجبهة . كما أن بروز الفك لم يكن غير شائع فى هذه الجماجم .

إلى جانب تلك الشعوب التى تنتمى إلى سلالة البحر الأبيض المتوسط وجدت فى فلسطين جماجم ترجع إلى السلالة الكبادوشية ذات الرأس العريض . تلك السلالة التى كانت فيما يبدو تكون شعب الحيثيين الذى امتدت امبراطوريته من آسيا الصغرى إلى مرتفعات لبنان وربما وصل إلى هضبة يهوذا لفترة قصيرة . ولعل هذا يفسر التقاطيع الحيثية الغليظة التى تميز بعض أفراد شعب اسرائيل كما سنرى فيما بعد .

غير أن هذه الشعوب قبل السامية ما لبثت أن اندمجت فى الشعوب السابقة الايجية التى هاجرت إلى فلسطين . وإذا كانت الصبغة السامية هى الغالبة على فلسطين فى أى عصر من عصور التاريخ العام فانه ينبغى لنا أن نتتبع هذه الهجرات وأن نشير إلى الشعوب التى حملتها إلى فلسطين .

يحسن بنا أن نقرر بادىء ذى بدء أن كلمة سامى مثل كلمة حامى أو آرى كلها تعبيرات ثقافية لغوية ، وليس لها أى دلالة جنسية ، فليس هناك جنس أو سلالة سامية .كما لا يوجد جنس حامى أو آرى . وما كانت اللغة دليلا على تمييز جنس أو سلالة من أخرى (١) . ونتبين صدق هذه الملاحظة من أن الساميين يشملون — فيما يشملون — سلالات تمتاز بالرأس الطويل وأخرى بالرأس العريض ، وجماعات تمتاز بالقامة النحيلة والتقاطيع الدقيقة . وأخرى تمتاز بالقامة القصيرة المكتنزة والتقاطيع الغليظة . هذا غير احتكار اليهود لوصف

(١) قارن هذا بما ورد عن الساميين فى المرجع التالى :
Cook, S.A. Camb. Anc. Hist. Vol. I 1923, CL. V, pp. 226-237.

السامية فى أوروبا وأمريكا فى الوقت الحاضر . على ما بين جماعاتهم من تفاوت فى المميزات الجنسية كما سنرى فيما بعد .

وأما عن الوطن الأصلى للساميين أو إقليم تكوينهم الأصلى . فإنه لم يتحقق بعد . فالعالم رينان يرى أن وسط شبه جزيرة العرب كان وطن الساميين الأول. بينما جويبرى يقترح البادية المتاخمة لغرب العراق (١) . ونحن نجد صعوبة فى تقبل وسط شبه جزيرة العرب كمبعث للهجرات السامية . إذ أن الساميين الأول لم يعرفوا الجمل وهو وسيلة المواصلات السريعة التى تصلح لقطع مسافات طويلة فى الصحراء إلا حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ولم يكن لديهم من دواب النقل إلا الحمار . وهذه الدابة لا تقوى على قطع مسافات طويلة فى الصحراء أما عن الفرض الآخر فربما كان أقرب إلى الحقيقة . وتؤيده روايات العهد القديم عن هجرة سيدنا إبراهيم ولوط عليهما السلام من ضفاف دجلة إلى الأردن . كما يؤيده أيضاً تاريخ هجرات الكنعانيين والعموريين والآراميين وحركاتهم صوب الجانب السورى (٢) .

وربما حق لنا أن نتساءل إذا كانت القبائل السامية ليست من سلالة واحدة ولا دليل فى هذا على أنه لا يقوم ما يعترض به على وجود عدة أصول للساميين بدلا من أصل واحد . فلماذا نتقيد بنظرية الأصل الواحد للساميين إذن ؟ ومنهم ذوو الرؤوس العريضة ومنهم ذوو الرؤوس الطويلة ومنهم من استعرضت رؤوسهم من سلالة البحر المتوسط ومنهم من هو أقرب إلى السلالة الارينية . بل منهم من حمل بعض الشبه بالسلالات الشمالية .

الساميون قبائل انبعثت من صحراء العرب شمالها أو وسطها من سلالات جنسية مختلفة ولكنها تتفق فى أنها تتحدث لهجات متقاربة تنتمى إلى أسرة لغوية واحدة وهى الأسرة السامية . هذه القبائل تظهر فى رسوم قدماء المصريين

---

(١) انظر بصفة خاصة Barton, Semitic and Hamitic Origins.

(٢) من الناحية الانثروبولجية انظر Barton, Semitic and Hamitic Origins.
Riply, W. The Races of Europe, London 1920, CL. XIV,
pp. 373 ff. also Keane, A.H. Man, Past & Present, Chapt. XIV.

على هيئة رجال ونساء يلبسون الصوف الملون . على عكس قدماء المصريين الذين كانوا يلبسون التيل الأبيض . حاسرى الرؤوس لهم شعر أسود وأنوف شماء أو معقوفة . تسوق أنعامها من الأثان وقطعان الماعز والضأن . وإذا دققنا النظر فى بعض هذه الرسوم لرأينا بعض أدوات الصناعة البسيطة مثل منفاخ الموقد ولا عجب فقد حمل هؤلاء الناس المعدن وحضارته إلى بلاد الهلال الخصيب فى القرن الرابع عشر ق. م.

والآن نستعرض هجرات الساميين الكبرى (١) واحدة بعد أخرى . حدثت أول هجرة سامية فى الألف الرابعة قبل الميلاد . وقد حملت هذه الهجرة فيما حملت — الكنعانيين إلى المعبر السورى . وقد احتل الكنعانيون السهل الساحلى لفلسطين ولبنان كما أنهم توغلوا فى السهول الداخلية فى فلسطين وسوريا ورابطوا على حافة الصحراء شرقى سوريا وجنوبى فلسطين . أما جبال لبنان ومرتفعات يهوذا والسامرة فإنها تجتذب إليها كثيراً من الكنعانيين الذين اكتفوا باحتلال بعض المواقع الحصينة على مداخل الوديان التى تنبع من الهضبة وتنحدر إلى السهل وحافات يهوذا المتقطعة . أما مركز حضارتهم فكان السهل الساحلى وتلال شفيلاه . وقد ظل العنصر الكنعانى هو العنصر السائد فى سوريا وفلسطين خلال الألف الثالثة ق. م .

أما الهجرة الثانية للساميين فقد حدثت فى الألف الثانية ق. م. ويبدو أن هذه الفترة كانت فترة اضطراب فى القبائل والشعوب السامية وغير السامية . أما الأولى فقد أرسلت العموريين شرقاً إلى بلاد بابل وبين النهرين وغرباً إلى سوريا . وفى نفس هذه الفترة انبعثت من هضبة إيران وصحارى وسط آسيا شعوب غير سامية مثل الكاسيين الذين ربما انتموا إلى التتر والترك . وهؤلاء غزوا بلاد ميديا وعيلام وبابل . كما خرجت طلائع الحيثيين من هضبة أرمينيا

---

(١) عن الهجرات انظر :

Kroeber, A. Anthropology, New-York, 1933 pp. 451 ff.

Keane, A.H. Op. Cit. pp. 491 ff. also Myres, G.S. Dawn of History. London, 1910, ch. V ; Coon, S. Op. Cit. pp. 432-44.

وآسيا الصغرى . إلى بلاد ما بين النهرين من جهة ، ومرتفعات المعبر السورى من جهة أخرى . وهكذا ابتدأ اختلاط السلالات فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما سنلاحظ فيما بعد .

أما الهجرة الثالثة فقد حملت عنصرين متمايزين إلى فلسطين . الآريين والعبريين الذين بدأوا يحلون محل الكنعانيين فى محلاتهم القليلة فى هضبة يهوذا . وقد كان القرن الرابع عشر ق. م. بدوره عصراً آخراً من عصور الاضطراب بين الشعوب والقبائل القديمة . يطلق عليه أحد عصور الهجرات الكبرى . شهد هجرة العبريين والأراميين من جهة ، واندفاع الحيثيين نحو الجنوب من جهة أخرى . كما شاهد طوفان القبائل الايجية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وخروج الفلسطين القـدماء Philistines بقطعـانهم وعرباتهم التى تجرها الثيران وسفنهم من جزر كريت وبحر ايجه إلى فلسطين من جهة ثالثة .

أما الهجرة الرابعة فقد خرجت فى القرن السابع قبل الميلاد . من شمال شبه جزيرة العرب ونستطيع أن نطلق على أصحابها اسم طلائع العرب وبدأت تلك الطلائع فى التسلل نحو شرقى فلسطين وجنوبها . وهذه شملت قبائل مؤاب وايدوم ومدين وعمون . وهذه القبائل كانت من أحلاف العبريين تعيش على أطراف الصحراء فى جنوب فلسطين وشرقى الأردن . وقد اشتد ساعد بعض هذه القبائل بسبب ظروف التجارة بين الشرق والغرب مما مكنهم من تأسيس مملكة الديدوميين ثم مملكة النبط أو الأنباط حوالى القرن الرابع قبل الميلاد فى الاقليم الذى يطلق عليه اسم اقليم النجب الآن (١) .

وأخيراً انبعثت الهجرة العربية الإسلامية فى القرن السابع الميلادى تحمل ديناً جديداً وثقافة جديدة قدر لها أن ترث التراث الثقافى حقبة طويلة من التاريخ.

بعد هذا العرض السريع للهجرات السامية التى انبعثت من شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب ننتقل إلى بحث سكان فلسطين فى العصور التاريخية بشىء من التفصيل .

---

(١) انظر : Ghallab, M.S. 1951. Op. Cit.

إن معلوماتنا عن سكان فلسطين فى العصور التاريخية مستقاة من المصادر الآتية :- رسوم وكتابات قدماء المصريين وبابل وآشور من ناحية - وما ورد فى سفر التكوين من العهد القديم من ناحية أخرى . وإن كانت الأولى - ولا سيما الخاصة بآثار قدماء المصريين - قد نقلت بأمانة أشكال القبائل والشعوب القديمة والتى اتصل بها المصريون فان الثانى قد ترك لنا أثراً مكتوباً له مكانته الدينية والتاريخية التى لا يمكن إنكارها هذا إلى الآثار المادية التى تركها سكان فلسطين القدماء . وعلى هذا نستطيع أن نلقى ضوءاً على الخليط الجنسى الذى عمر فلسطين فوجاً وراء فوج فى تاريخها القديم . وقد أشرنا إلى الشعوب غير السامية التى وجدها العبريون عندما هاجروا إلى أرض الميعاد. ولا بد هنا من أن نضيف أن العبريين لم يكونوا أول شعب سامى هاجر إلى فلسطين فقد سبقهم الكنعانيون الذين احتلوا السهل الساحلى - كما قدمنا - أما الهضبة فقد احتلها الحيثيون وشعب حربى آخر يدعى بالعموريين . وهنا نقابل أول مشكلة من المشاكل الجنسية فى فلسطين القديمة : من هم العموريون ؟ بل من هم الحيثيون ؟ لقد ترك الأخيرون أثرهم فى تاريخ الشرق القديم ولكن بالرغم من هذا فقد ظل أصلهم مجهولا[1] ونستطيع أن نتصورهم شعباً حربياً شديد المراس احتل هضبة الأناضول وأرمينيا واندفع منها محتلا لمرتفعات الانصارية ولبنان ويهوذا حاملا حضارة الحديد الذى أكسبهم قوة إلى قوتهم . وقد ظلوا زمناً طويلا مسيطرين على الطرق الجبلية بين خليج الاسكندرونة وأعالى دجلة والفرات يهددون الحضارات النهرية المستقرة فى الشرق الأدنى . أما عن مميزاتهم الجنسية فنستطيع أن نقرر أنهم كانوا يتصفون بالرأس العريض والأنف الضخم المعقوف . ولعل هذه الصفات هى التى أدت بالعالم فون لوشان إلى أن يعتبرهم من أصل أرمنى . وقد دعته أيضاً - وشايعه فى ذلك بعض الكتاب - إلى أن يفترض اختلاطهم بالعبريين فى هضبة يهوذا وتوريثهم إياهم الصفات الأرمينية من التقاطيع الغليظة والرأس الكبير العريض والأنف المعقوف والقوام

(١) فيما يختص بأصل الحيثيين وتطور حضارتهم انظر على سبيل المثال :
Hogarth, D.G. The Hittites, of Asia Minor, Cam. Anc. Hist. Vol. I 1951.
Forrer, E.O. The Hittites in Palestine Pal. Exp. Quart. St. 1937 pp. 100.

الربعة الذى يميل إلى أن يكون ضخم الهيئة (وهذا هو طابع جمهرة يهود شرق أوروبا فى الوقت الحاضر) . إلا أن هذا الاستطراد المنطقى نتيجة فرضية من الفروض وليس قائماً على أساس تاريخى إذ افترض فون لوشان أن شطراً من يهود شرقى أوروبا قد اكتسب تلك الصفات الغليظة من الشرق الأدنى وأن الحيثيين من أصل أرمنى وكلاهما لا أساس له من التاريخ (١) .

هذا عن الحيثيين . أما عن العموريين فقد اختلفت الآراء فى شأنهم اختلافاً كبيراً . ففريق من الكتاب يراهم من المجموعة السامية ، وفريق آخر يفترض أنهم من السلالة الشمالية (النوردية) والواقع أن قدماء المصريين لونوا بشرتهم فى صورهم باللون الأصفر كما جعلوا لهم لحى مسترسلة وأنوفاً معقوفة . وقامات طويلة مما قد يوحى بوجود أثر نوردى فى دمائهم . وقد ذهب فون لوشان إلى أبعد من هذا وربط بينهم وبين التحنو الذين كانوا يرابطون على حدود مصر الغربية . إلا أننا أميل إلى اعتبارهم من المجموعة السامية لأنهم كانوا يتكلمون السامية . وأميل إلى اعتبارهم سلالة حربية من أبناء عمومة الكنعانيين يعيشون على ذرى مرتفعات يهوذا وتلال شفيلاه بينما يعيش الكنعانيون فى السهل الساحلى ولا نجد فى صفاتهم الجنسية ما يحول دون سابقيهم . فليست السامية جنساً من الأجناس ولا سلالة من السلالات بل هى ثقافة ومزاج فكرى امتازت بها مجموعة من البشر فى الشرق الأدنى . واستطاعت أن تصهر فى بوتقتها وتتمثل فى مختلف العناصر والسلالات التى اتصلت بها أثناء تجوالها فى شمال شبه جزيرة العرب .

نستطيع أن نقول أن الكنعانيين كانوا أهم شعب صادفه العبريون عند دخولهم فلسطين أول مرة فى القرن السادس عشر ق. م. بل نستطيع أن نذهب أكثر من ذلك ونقول أن بنى كنعان كانوا الشعب الذى تمثلته السلالة الباقية الأساسية لسكان فلسطين حتى الوقت الحاضر .

---

(١) انظر Coon ، حاشية صفحتى ٤٣٤ — ٤٣٥ ، وانظر كذلك :
Oesterly W.O.E. & Robinson, T.H. A History of Israel, Oxford. 1932, pp. 30 & 40 ff.

والكنعانيون هم المجموعة القريبة من الساميين الذين أنشأوا معظم المدن الفلسطينية فى عصر البرونز . والتى امتازت بميزات خاصة يمكن تلخيصها فى كلمة الاكروبول . إذ كانت حصوناً منيعة فوق ربى وتلال مرتفعة تشرف على طريق أو أكثر أو واد سحيق . يهرع إليه الفلاحون إذا حزبهم الأمر . كما كان الكنعانيون هم الذين قطعوا النباتات والأشجار من الهضبة ومهدوا الأرض للزراعة مستعينين بوسائل رى بدائية . وهم باختصار الذين مهدوا للعبريين سبيل الاستقرار فى فلسطين (١) .

والغريب أن قوماً هذا شأنهم وخطرهم فى تاريخ فلسطين ، قد أخرجهم سفر التكوين من حظيرة الأمم السامية ووضعهم فى زمرة أبناء حام (سفر التكوين الفصل ١٠ ، آية ٦ — ١٩) . وهذا أمر راجع إلى عامل العداء المستحكم بين بنى اسرائيل ومن سبقهم إلى تعمير فلسطين من كنعانيين وعموريين . هذا العداء الذى حملوه أيضاً ووجهوه إلى الفلسطين الذين احتلوا الساحل فيما بعد .

وقد عاصرت أول هجرة عبرية بقيادة إبرهيم ولوط عليهما السلام من جانب العراق الغربى وإلى نهر الأردن هجرة سامية أخرى من الشمال الشرقى هى هجرة الأراميين الذين استوطنوا الغوطة وجعلوا دمشق عاصمة لهم . الذين توغلوا إلى مرج ابن عامر وشمال السامرة وكونوا فيما بعد جانباً من مملكة بنى اسرائيل ولقد سادت لغتهم فى شمال فلسطين فى أوائل العصر المسيحى ومن الطريف أن نذكر أن السيد المسيح عليه السلام بشر بتعاليمه باللغة الأرامية وليس بالعبرية كما قد يتبادر إلى الذهن .

قاد إبرهيم ولوط عليهما السلام — فيما تروى التوراة — القبائل العبرية إلى شرقى الأردن ثم عبر بهم منخفض العرابة جنوب البحر الميت وحط رحاله جنوب هضبة يهوذا بالقرب من حبرون (الخليل) وكانت هذه القبائل العبرية التى دخلت فى شكل سلمى أرض فلسطين تعيش فى اقليم قليل السكان يجمع

---

(١) انظر :
Olmstead, A.D. A History of Palestine, 1931. Also note by Albright, Westminster Atlas, Philadelphia, 1945, p. 24.

بين مميزات البيئة الرعوية من ناحية ومقومات الحياة الاستقرارية من جهةأخرى. هضبة تغطيها الأعشاب والأحراش وغابات الزيتون والجميز وأشجار الكروم . وقد عاش إبرهيم وقومه حياة رعوية تحت نظام بطرقى . ثم بالتدرج تحولوا إلى نصف رعاة ثم زراع وقد وصف العهد القديم حياة العبريين الأول فى سفر الخروج وسفر القضاة ومن الممكن أن نعتبر إبرهيم وقومه طلائع العبريين فى فلسطين . أما هجرة بنى اسرائيل فى القرن الرابع عشر ق. م. فقد جاءت عبر نهر الأردن تجاه اريحا . ولم تأت هجرة سلمية تتسلل دون أن يشعر بهد أحد كهجرة إبرهيم وقومه . بل حملة حربية بقيادة يوشع وربما صاحبتها حملة مشابهة من الجنوب بقيادة موسى عليه السلام. فهؤلاء أيضاً لم يدخلوا بلاداً عامرة بالسكان ولذا لم يلقوا مقاومة ذات قيمة . إذ أن غالبية بنى كنعان كانت تسكن السهل وتلال شفيلاه التى لم يقهرها بنواسرائيل إلا فى فترات محدودة من تاريخهم إبان حكم سليمان عليه السلام (حوالى ١٠٠٠ ق. م.) .

أما عن مميزاتهم الجنسية فقد لاحظ Coon أنهم ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط السمراء مثل غالبية العرب الشماليين . وتدل الهياكل العظمية الباقية فى آثارهم على وجود نسبة كبيرة من سلالة البحر المتوسط الكبادوشى التى تمتاز باستعراض الرؤوس، ويوجدون فى الوقت الحاضر فى جنوب شبه جزيرة الأناضول . وهذا لم يمنع كما ذكرنا من قبل أنهم اتصلوا ببعض عناصر سامية سابقة كانت بذورها قد تأثرت بالشعوب السابقة للساميين . تلك العناصر التى سبقت بنى اسرائيل إلى احتلال بعض المواقع الحصينة فى يهوذا مثل العموريين الساميين والحيثيين غير الساميين .

لعلنا نستطيع الآن أن نتصور هجرات العبريين على أنها كانت هجرات سلمية متفرقة تحت قيادة أفراد مختلفين أتت بشعوب مختلفة من الناحية الأنثولوجية وإن اتفقت فى اللغة السامية اللهم إلا إذا استثنينا حملة يوشع وان هذه الهجرات حملت قبائل العبريين بنى عمومتهم من الكنعانيين (اللغة العبرية فصيلة من اللغات الكنعانية) ولذلك لم يجدوا صعوبة فى امتصاصهم وصبغهم بالصبغة العبرية من الناحية الثقافية . فالعبريون فيما رأينا لم يعدوا كونهم جماعات سامية انفصلت

من أبناء عمومتها من القبائل السامية الأخرى السابقة للعرب . وتميزوا فى وطنهم الجديد — هضبة يهوذا — بناحية دينية فريدة فى نوعها من ذلك الحين . وهى عقيدة التوحيد . وهى إيمان بإلـه واحد هو ياهويه أو جيهوفا . هم عبيده وهو ربهم . ولعلهم كانوا يتصورون أنه كان ربهم وحدهم إذ لم يحاولوا التبشير بدينهم بين الأمم الأخرى . وبذلك تكونت لديهم عصبية دينية قومية خالصة ميزتهم عن غيرهم من القبائل السامية من ناحية وعن غيرهم من الأمم والشعوب غير السامية فى التاريخ القديم من ناحية أخرى (١) .

٤ — الهجرات غير السامية : عناصر الفلسطين :

فى نفس الوقت الذى دخل فيه العبريون فلسطين تقريباً من الشرق بقيادة يوشع فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . كانت شعوب شمال شرقى البحر الأبيض المتوسط تضطرب اضطراباً عنيفاً تحت هجمات القبائل المندفعة من وسط آسيا وشرق أوروبا . وكان من نتائج ذلك أن انهارت الحضارة المينوية وتشتت شعب كريت وجزر بحر ايجه تحت ضغط تلك الشعوب . ويشير رمسيس الثالث إلى حركة هذه الشعوب فى نقوش وجدت فى مدينة حابو وفى بردية هاريس الكبرى إذ ورد فيها النص التالى « كانت الجزر مضطربة غير مستقرة لم تقف فى وجه أهلها دولة (يقصد شعوب البحر) من خسيتا (كبودوشيا) وكيرى (خليج اسوس أو الاسكندرونة) وتوقميش وألاشيا ، فقد أتوا عليها جميعاً بالتخريب والتحريق ثم حطوا رحالهم فى (فلسطين)(٢) وذلك بعد أن فشلت فى هجومها على مصر . وهناك على السهل الساحلى استقرت تلك الهجرات البحرية . وامتصت الحضارة الكنعانية واشتغلت بالزراعة . إذ أن بيئتهم الجديدة

---

(١) انظر مختصراً عن العقيدة الموسوية وتكوين الشعب اليهودى وخصائصه الفكرية والثقافية فى :
Turner, R. The Reat Cultural Traditions, vol. I.
Ancient Cities, Chap. III, pp. 123-168 & III. — pp. 359

(٢) ورد هذا النص فى : Peake & Fleurs, Horse & Sword, p. 56.

لم تشجع على الاستمرار فى النشاط البحرى لعدم وجود المرافىء الطبيعية أو مواد الأخشاب اللازمة لبناء السفن بعكس الحال فى ساحل فينقيا . كما أنهم احتفظوا بأسماء المدن الكنعانية القديمة وإن كانوا أتوا بنظام المدن المستقلة . إذ أنهم كونوا ممالك صغيرة فى مدن عكرون وجات وأشدود وعسقلون وغزة وقد شمل توسعهم فى بعض الأحيان حتى مدينة يافا وسهل شارون شمالا . أى أنهم سادوا فى وقت ما السهل الساحلى من جبل الكرمل إلى حدود مصر الشرقية .

هكذا كان الفلسطين القدماء الذين أعاروا أسماءهم للبلاد بأكملها غرباء تماماً عن الشعوب السامية ، لم تطغ عليهم الثقافة العبرية وإن تمثلوا بعض عناصر الحضارة الكنعانية الخاصة باستثمار الأرض . وقد ظلوا فى حالة عداء مستمر مع بنى إسرائيل مما حفلت بوقائعه أسفار العهد القديم ولاسيما سفرا الملوك الأول والثانى . ولما لم تكن لديهم عصبية عنصرية دينية كالتى تكونت لدى العبريين فى يهوذا فانهم كانوا على أتم استعداد لتمثل المؤثرات الحضارية التى يحملها التجار العابرون بسهلهم أو رسل الحضارات النهرية الكبرى أو الحضارات التى تفد إليهم من عرض البحر . إذ أن مدنهم كانت من أولى وأكثر مراكز الحضارة الهيللينية فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

ويؤيد أصلهم الايجى ما ورد فى سفر التكوين الفصل الحادى عشر الآية الخامسة « ويل لشعب ســـاحل البحر شعب كريتيم — لعنة ياهويه تحيق بك ياكنعان — أرض الفلسطين — سينزل عليك غضبى — لا يبق على ظهرك إنسان وعندئذ تتحول كريت إلى مراعى يجول فيها الراعى بقطعانه » وفى مواضع أخرى من هذا السفر تظهر أسماء كافتور أو كريت وكفيتو وقد يبدو من أول وهلة أن المسألة لا تعدو تشابه فى الأسماء أو قد يبدو هناك تعارض بين هذا الأصل الكريتى وبين نتائج دراسة الأستاذ برستد لبردية هاريس الكبرى من ناحية ، ولصورهم فى الآثار المصرية القديمة من ناحية أخرى . إذ أنهم يبدون مرتدين فوق رؤوسهم خوذات على هيئة ريش الطيور مما كان يلبسه أهل ليفيا وكاريا . ولكن لا محل لهذا الاعتراض إذ لا تناقض بين الرأيين . فربما هاجر

الفلسطينيون وهم من أهل كريت عن طريق ليفيا وكاريا فى جنوب آسيا الصغرى حيث اقتبسوا شيئاً من حضارة تلك البلاد ثم اضطروا إلى الهجرة من الأناضول تحت ضغط البريجز أو الفريجيين (١) .

٥ — العصر الاغريقى الرومانى وبدء تشتت اليهود واستعراب فلسطين :

بعد أن انتهينا من عرض صورة موجزة لاستيطان فلسطين فى التاريخ القديم انتهت بتكوين شعبين مختلفين بنى اسرائيل فى هضبة يهوذا والسامرة والشعب الفلسطينى فى السهول الساحلية . نعرض إلى الأحداث التى شتتت شمل اليهود كما سنعرفهم منذ الآن قسراً ثم اختياراً بعد أن خرجوا عن عزلتهم الدينية واتصلوا بحضارة الاغريق والرومان من ناحية والتى أدت إلى استعراب فلسطين وامتصاص القبائل العربية للعناصر الكنعانية من ناحية والعناصر الأصلية من ناحية أخرى .

عانى اليهود أول محنة قوية على يد بابل عندما قاوموا غزوها لهم فحاقت عليهم نقمة بختنصر سنة ٥٨٦ ق م. وانتقامه الفريد فى نوعه إذ أسر خلاصة الشعب اليهودى وقادة الرأى فيه وكرائمه . أسرهم وحملهم قسراً إلى بابل وهناك فيما بين النهرين نشأت أول مستعمرة يهودية خارج يهوذا وعندما أعاد إليهم قورش حريتهم عام ٥٣٨ ق . م . وخيرهم بين البقاء والعود إلى يهوذا ، فضل معظمهم البقاء فى العراق وأنشأوا الجالية اليهودية التى تطورت بالديانة اليهودية تطوراً خاصاً فى العراق . وهذه الجالية لا تزال مقيمة فيه حتى الآن .

أما الهجرات التالية لليهود فقد كانت عن قصد واختيار عندما اضطر اليهود إلى الخروج عن عزلتهم والأخذ بأسباب الحضارة الهيللينية المستقرة فى سهل فلسطين واتصلوا بالعالم الاغريقى بعد فتوح الاسكندر المقدونى . وفى هذه الهجرات أسسوا مستعمرات يهودية فى مصر (ولا سيما فى الاسكندرية) وسوريا

---

(١) عن أصل الفريجيين انظر :

Hall, H.R. C.A.H. vol. II, Cambridge 1924, Ch. XII, p. 275-294 & 383 et sq. also Smith, G.A. The Historical Geography of the Holy Land, London 1889, Chap. IX.

وآسيا الصغرى كما أسسوا مستعمرات أخرى فى البلقان وفى سواحل البحر الأسود الشمالية . وقد كان لهذه الجالية اليهودية المؤسسة فى اقليم خزرستان أثر كبير فى تاريخ اليهودية إذ أنها صمدت لغزوات الهون والتتار واستطاعت أن تقنع قادة مملكة الخزر باعتناق اليهودية فدخل شعبهم فى هذا الدين جملة فى القرن الثامن الميلادى . وإلى هؤلاء الخزر ينتمى جزء كبير من اليهودية الأوروبية . هذا القسم الذى انتشر من مصب الفولجا والقرم شمالا وغرباً فى شرق أوروبا .

أما الهجرة الثالثة فقد كانت فى أعقاب امتداد الامبراطورية الرومانية ولا سيما بعد عام ٧٠ الميلادى عندما هدم الهيكل الثالث على يد الرومان ولم تقم له بعد ذلك قائمة . ولعل هدم ذلك الهيكل كان إيذاناً ورمزاً لانهاء دولة بنى اسرائيل فى هضبة يهوذا . وفقدهم تلك البلاد كموطن قومى فيما يقرب من ألفى عام . وربما كان السبب فى خروج تلك الهجرة ازدحام يهوذا بالسكان على أثر استتباب الأمن والنظام الرومانى وتحسن مستوى الصحة العامة مما أدى إلى نقص الوفيات نتيجة لوقف الحروب والمشاحنات الداخلية بين اليهود ، أو بينهم وبين فلسطين من جهة ، ومغادرة المدن القديمة (الاوكروبول) المكتظة بالسكان والاقامة فى السفوح المكشوفة الصحية من جهة أخرى . وقد كان نتيجة هذا كله أن ازداد عدد السكان إلى حد لم يجدوا أمامهم فيه سوى الهجرة إلى الخارج . وخصوصاً بعد القضاء على ثورة المكابيين التى تعتبر آخر احتجاج عنيف للأمة اليهودية أمام ضغط الظروف الخارجة . واضطرارها إلى النزول عن مقوماتها القومية والأخذ بالمدنية غير اليهودية . ونستطيع أن نقرر أنه منذ ذلك الخروج الذى أعقب تخريب المعبد الثانى أفقد اليهود أغلبيتهم بين سكان فلسطين كما فقدوها كوطن قومى (١) .

خرج اليهود من هذه المحنة مواطنين رومانيين وهاجروا إلى إيطاليا واسبانيا وفرنسا وألمانيا الغربية قبل أن تصلها قبائل الجرمان نفسها. ويبدو لنا أن احتفاظ اليهود بقوميتهم وشخصيتهم طوال التاريخ بعد أن بادت أمم عاصرتهم واندمجت

(١) انظر :

Coon, C.S. op. Cit. pp. 435 ff. Also Haddon, A.C. & Husxley, J.S. We Europeans, London 1930, Ch. VI.

فى غيرها من الأمم ، يرجع إلى العاطفة العنصرية الدينية التى أشرنا إليها وإلى ظاهرة التشتت أو الخروج من هضبة يهوذا والانتشار فى أنحاء العالم اليونانى ثم الرومانى بل الانتشار بعد ذلك فى العالم الإسلامى . وأخيراً الانتشار فى أرجاء المدنية الغربية . لقد انتشر اليهود فى ركاب كل مدنية كبرى فى التاريخ منذ العصر اليونانى الرومانى . وقد ساعدهم على ذلك عدم تقييدهم بقومية محلية معينة بحيث تنهار معنويتهم بانهيارها وتزول قوميتهم بزوالها . وما أسرع ما غادروا السفن قبل أن تغرق وما أسرع ما تنصلوا من حضارة وتلاءموا مع أخرى . فهم يرتبطون بالعالم الاغريقى إبان قوة الحضارة الاغريقية الرومانية ثم عادوا يحتلون مركزاً ممتازاً بين الأمم الكتابية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية ثم عادوا يحتلون مركزاً ممتازاً فى حضارات الغرب الأوروبية الأمريكية .

فى الوقت الذى بدأت فلسطين تفقد فيه الصبغة اليهودية بدأت القبائل العربية أو المستعربة تتسلل إليها . ونقصد باستعراب فلسطين اصطباغ البلاد بالصبغة العربية . وليس معنى هذا أن سلالة حلت محل سلالة ، إذ لم يبذل العرب أى جهد لقهر فلسطين بالقوة إلا فى القرن السابع الميلادى والواقع أن العرب الشماليين ينتمون إلى نفس السلالة التى ينتمى إليها الكنعانيون التى تكون غالبية سكان فلسطين ولذلك لم يجد العرب صعوبة كبيرة فى استعراب بنى عمومتهم من الكنعانيين ، الذين تمثلوا السلالة الفلسطينية ، بعد أن فقدوا قوميتهم فى العصر اليونانى الرومانى .

ولعل عملية استعراب فلسطين قد بدأت منذ الغزو العبرى نفسه . فقد لاحظنا أن العبريين لم يكونوا سوى مجموعة سامية اختلفت لهجتها عن العربية وباختلاف المنازل والأوطان ازدادت الشقة اتساعاً بين اللهجتين ازدياداً جعلهما لغتين متمايزتين وان اتفقا فى الأصل وفى كثير من المميزات اللغوية . وقد كان يصحب القبائل العبرية أحلاف سامية أخرى سكنت شرقى الأردن وجنوب فلسطين فى اقليم الخليل وغزة وما عرف بعد ذلك باسم النجب (١) . ومنها

(١) النجب لفظة عبرية بمعنى الجنوب ولم ينصرف معناها إلى المثلث الجنوبى لفلسطين إلا بعد إبرام معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وإنما انصرف معناها العبرى إلى اقليم غزة وبئر سبع والخليل فقط .

قبائل سودوم وأيدوم والاسماعيليين وقد احتفظت هذه القبائل بمرونتها وحريتها فى التحرك واتصالها المستمر بالقبائل البادية شمال شبه جزيرة العرب. واحتفاظها بالصبغة البدوية أو نصف البدوية مما ساعدها على متابعة التطور الأثنولوجى فى شمال شبه جزيرة العرب . فهى لم تعتنق مذهباً دينياً أو قومياً أو عنصرياً محدداً بحدود مكانية كما فعل العبريون فى هضبة يهوذا . فهؤلاء الأخيرون – فى رأينا – قد قطعوا كل صلة بينهم وبين أبناء عمومتهم من البدو . وذلك باتخاذهم وطناً ثابتاً واكتسابهم عصبية دينية قومية ميزتهم عن أحلافهم .

كذلك لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن هذه القبائل التى وفدت فى ركاب العبريين ولم تتأثر بعصبيتهم الدينية يمكن اعتبارها طلائع العرب فى فلسطين وسوريا وقد ظهرت جموعهم فى شكل منظم ذى أثر فى تاريخ البلاد فى القرن السابع ق. م. عندما قامت دولة الايدوميين فى العصر الاغريقى الرومانى وامتدت دولتهم شمالا حتى خط يمتد من حبرون (الخليل) شرقاً إلى عسقلون على الساحل غرباً . وقد حلت محلها دولة الانباط وهى دولة عربية كانت تكتب لغتها بحروف اغريقية وكانت مخالفة للحضارة الاغريقية . وهذه الدولة شملت جنوب هضبة يهوذا أو السهل الساحلى حتى غزة شمالا وبالرغم من أن قوات تراجان قد قضت على هذه الدولة وتهدمت عاصمتها سلع (بترا) فى أوائل القرن الثانى الميلادى . إلا أننا نستطيع أن نتصور أن أهلها عادوا جملة إلى شبه جزيرة العرب (١) . فقد كان اتجاه هجرات البدو عموماً على عكس هـــذا الاتجاه تتجه إلى أطراف الهلال الخصيب ، تتسلل فى بطء ولكنه مؤكد ثابت وتحتل المناطق شبه الصحراوية فى جنوب فلسطين وتتحول تدريجياً إلى حالة نصف بدوية ثم تستقر وتندمج فى السكان السابقين لهم فى البلاد حتى أصبحت الغلبة آخر الأمر لعنصرهم عندما أصبح اليهود أقلية عددية وعندما ضعف شأن الاغريق والرومان فى البلاد حتى إذا دخل العرب فلسطين غزاة فاتحين فى القرن السابع الميلادى كانت البلاد مهيأة لاستقبالهم بغالبية سكانها العرب أو المستعربين.

---

(١) انظر :

Huzayyin, S.A. Arabia & The Far East, Cairo 1942 pp. 6 ff. & 219 ff.

٦ — الشعب العربى الفلسطينى :

يختلف عرب فلسطين عن جيرانهم سكان سوريا بأن صفاتهم أقرب إلى صفات العرب الشماليين منهم إلى صفات السوريين أو سكان شرقى البحر الأبيض المتوسط الذى يطلق عليهم الأنثروبولوجيون اسم Levantines فهم ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط المتوسطة القامة ذات الرأس الطويل (النسبة الرأسية ٧٨ — ٨ر٧١) . على أن سكان المدن ولا سيما الموانىء أكثر اختلاطاً من سكان الريف . ويميل الرأس فيهم إلى الاستعراض (النسبة الرأسية ٨ر٨١) والقامة إلى الطول . هذا إلى وجود الشعر الأشهب شائعاً بينهم ولعل أحدث اختلاط حدث بين السكان المسلمين فى فلسطين وشرقى الأردن هو هجرة السيراقوسيين المسلمين من سكان بلاد القوقاز الذين أبوا الخضوع لحكم قيصر وسمح لهم السلطان عبد الحميد بالهجرة إلى سوريا فى مطلع القرن الحالى .

هذا عن السكان المستقرين وسكان المدن . أما عن سكان البادية الذين كانوا إلى عهد قريب لا يزالون يرعون قطعان الضأن والإبل فى هضبة يهوذا وجنوبى فلسطين فإنهم يمثلون الطراز السامى الأصيل المنتمى إلى شمال شبه جزيرة العرب . وهم يمتازون بطول الرأس [1] إلا أن سكان النجب واقليم غزة يظهر عليهم بعض أثر مصرى من الطراز الجيزاوى العريض الرأس أو متوسطها والممتلىء القامة (النسبة الرأسية تتراوح بين ٧٨ و ٧ر٨١) .

ويبدو أن هذا لا يدعو إلى الدهشة فقد ظلت مرتفعات فلسطين محتفظة بالصبغة السامية لم تفقدها قط فى تاريخها الطويل اللهم إلا إذا استثنينا بعض الخصائص الحيثية فى فجر التاريخ . إذ أنها خضعت دائماً وبصفة مستمرة لظروف الهجرة العربية الدائبة من الجنوب . أما سكان السهل الساحلى فقد تأثروا بالشعوب الايجية منذ فجر التاريخ كما أنهم تأثروا بغيرهم من شعوب شرقى البحر الأبيض المتوسط . ولذلك ظهرت بينهم الرءوس المستعرضة ويرى

---

(١) انظر :
Kappers, C.V.A. Anthropology of The Near East in Ancient and Recent Times. Beirut 1932.

بعض الكتاب أنهم خليط من سلالات رئيسية ثلاث . هى سلالة البحر المتوسط والسلالة الأرمينية والسلالة الكردية [1] .

٧ – اليهود وانتشارهم فى العالم ومميزاتهم الجنسية :

أما وقد بدأت الهجرات اليهودية تفد على فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر ثم ازدادت عدداً واستفحل خطرها منذ الانتداب البريطانى على فلسطين سنة ١٩٢٠ فاننا نرى أنه لا بد من تتبع مصادر هذه الهجرات اليهودية إذ أن دراستهم الجنسية لا يمكن فصلها عن دراسة أوطانهم التى هاجروا إليها وعاشوا بين ظهرانى أهلها .

من الخطأ محاولة ربط اليهود بسلالة معينة أو بقطر معين ، فاليهودى « مواطن عالمى » بأدق معنى هذه العبارة . وهذه الصفة وحدها هى التى حفظت لهم كيانهم ، فلم يندثروا كما حدث لغيرهم من الأمم القديمة . هذا إلى أن اليهودى – كما يقرر الأستاذان هكسلى وهادون [2] نتاج بيئته المحلية وهذا أمر متوقع إذ لم يزد عدد بنى اسرائيل فى يهوذا عن ثلاثة أرباع المليون نسمة ثم أصبحوا فى تقدير هذين الأستاذين [3] سبعة ملايين يعيشون فى الامبراطورية الرومانية وهم يبلغون الآن حوالى عشرين مليون نسمة . هذا رغم المذابح العديدة والاضطهادات المتكررة التى تعرضوا لها فى أكثر من قطر من أقطار أوروبا منذ عصر النهضة . ولا يمكن أن يكون هذا العدد غير نتيجة لتزاوج اليهود مع الشعوب التى عاشوا معها . ولاعتناق أفراد هذه الشعوب أو بعضهم للدين اليهودى . ويحدثنا التاريخ عن الخزر الذين دخلوا فى اليهودية جملة فى القرن السابع الميلادى هذا عدا بعض القبائل السابقة للجرمان وبعض قبائل الكلت التى اعتنقت اليهودية قبل انتشار المسيحية فى أوروبا .

---

(١) انظر :

Luschan, F., von, The Early Inhabitants of Western Asia, J.R.A.J. 911, vol. 41, London, 1913, pp. 221-244.

(٢) راجع :

Haddon, A.C. & Huxley, J. We Europeans, London 1935, pelican 1939.

(٣) نفس المرجع ص ١٥٢ .

من هذا يتبين أنه من العبث محاولة البحث عن سلالة يهودية فى الوقت الحاضر . فمثل هذه السلالة على فرض وجودها أصلا قد اندثرت منذ خروج بنى اسرائيل من هضبة يهوذا فى القرن الأول الميلادى واختلاطها بجيرانها ودخول بعض العناصر الجديدة فى تكوينها مما جعل اليهودية تنصرف عن معناها العنصرى القديم إلى معنى دينى حديث . مثلها فى ذلك مثل غيرها من الديانات الكتابية الأخرى . ينتمى إليها عناصر وسلالات متعددة . وهذا يفسر الخليط الجنسى العجيب الذى عليه اليهود فى الوقت الحاضر فيمكن أن ينتمى اليهودى إلى أى سلالة من سلالات البشر ما عدا الزنوج والهنود الأمريكيين وغيرهم من السلالات البشرية البدائية فإلى جانب السلالات القوقازية البيضاء بعناصرها الرئيسية المعروفة نجد الهنود اليهود والصينيين اليهود فى أقصى الشرق واليهود السود (الفلاشا) فى الحبشة ممن يطلق عليهم فشبرج اسم اليهود ديناً لا عنصراً .

ولهذا كان من العسير علينا قبول تقسيم فشبرج لليهود (١) إلى يهود ديناً وعنصراً ، ويهود ديناً فقط ويهود عنصراً فقط ، كما أنه من الصعب قبول منطق كون (٢) الذى حاول به أن يثبت وجود سلالة اثنولوجية يهودية . وان اختلفت فى شكل الرأس أو القامة أو لون الشعر أو غيرها من المميزات الجنسية العامة . اعتماداً على وجود بعض صفات الوجه التى جاهد فى إثبات وجودها . مثل شكل الوجه وقرب ما بين العينين وظنها كافية لأن تميزهم كمجموعة اثنولوجية أو كسلالة قائمة بذاتها . ولهذا أيضاً لا نستطيع أن نقبل تقسيم اليهود على غير أساس مذهبى كغيرهم من الجماعات الدينية . وهو التقسيم المعروف إلى اشكنازية ، وسفاردية ، وقرائين أو شرقيين . ويمكن أن ندخل فى القسم الأخير السامريين أو يهود فلسطين الأصليين .

---

(١) انظر :
Fishberg, M. The Jews. A Study of Race & Environment, London & New York, 1940, CL. V.

(٢) انظر :
Coon, C.S. Loc. Cit. pp. 442 et seq 8 pp. 640 et seq.
Jacob, J. On the Racial Characteristics of Modern Jews. J.A.J. Vol. 1 886 pp. 23-62 vol. XV. London 1886, Fishberg, M. 1910 Loc. cit ; Fishberg, M. Boas Anniversary vol. 1906 pp. 55-65 & Weissenberg, (S. Mitt. Anthrop. Gessell. Wien) vol. 42, pp. 85-102.

الاشكنازية أكبر طائفة يهودية فى العالم الآن من حيث العدد وربما كانت أهمها من حيث الثقافة والنفوذ وترجع فى نشأتها إلى يهود الراين الذين لاقوا نوعاً من الاضطهاد الدينى بعد الحروب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ م فاتجه جزء منهم شرقاً إلى بوهيميا وبولندة ثم إلى روسيا وهناك تقابلوا مع من سبقهم من اليهود البيزنطيين والخزر الداخلين فى اليهودية . وتكونت من امتزاج هذه العناصر اليهودية جميعاً المجموعة الاشكنازية التى تتكلم لهجة ألمانية قديمة تكتبها بالحروف العبرية وتسمى باللغة اليهودية Jeddish وإن كانت تحتفظ لغة للطقوس الدينية وتشمل الاشكنازية فى الوقت الحاضر يهود وسط أوروبا وشرقيها ومن هاجر منهم إلى الأمريكتين أو جنوب افريقية أو فلسطين ويمتاز أفراد هذه الطائفة بالقامة الربعة المتوسطة المليئة التى تميل إلى القصر (١٦٢ — ١٦٧ سم) فى المتوسط ، والرأس العريض . كما تتراوح النسبة الرأسية بين ٨١ فى ألمانيا إلى ٨٤ فى بوكوفينا و ٨٥ فى تركستان وبخارى وسمرقند . ولون الشعر أشهب وتبلغ نسبة السمرة بينهم ٥٥٪ بينما لا تزيد الشقرة الخالصة على ١٠٪ على أن صفة الشقرة تزداد بازدياد وجودها بين الشعوب التى يسكنون بين ظهرانيها والخلاصة أنهم يتفقون فى كثير من الصفات الألبية والسلافية الموجودة فى شرقى أوروبا ووسطها .

أما الطائفة السفاردية فهى بقايا اليهود الذين طردوا مع العرب من الأندلس (١٤١٢ م) ثم هاجروا إلى هولندا وانجلترا شمالا وإلى شمال افريقيا جنوباً وإيطاليا شرقاً . وقد اعتصم عدد كبير منهم بالامبراطورية العثمانية الناشئة وقطنوا البلقان وآسيا الصغرى والشرق الأدنى وقد احتفظ هؤلاء بلهجة اسبانية تسمى اللادينو فى البلقان أو الاسبانيولية Espaniole فى غيرها . ويمتاز أفراد هذه الطائفة بالقامة النحيلة المتوسطة (١٦٢ سم) والرأس الطويل أو المتوسط (النسبة الرأسية ٧١) ونسبة الشقرة بينهم قليلة لا تعدو ٥٪ إلا أنهم يتفقون مع الاشكنازية بضيق ما بين العينين .

أما اليهود الشرقيون أو القراءون فيشملون السامريين وهى أقدم مجموعة يهودية فى العالم وربما كانت المجموعة اليهودية الوحيدة التى ظلت فى فلسطين لم تبرحها قط . وهى مجموعة ضئيلة تسير نحو الانقراض، وتمتاز بالقامة المتوسطة أو الطويلة والرأس الطويل والشعر الأصهب . وهى تتكلم العربية ومن العسير التمييز بينهم وبين عرب نابلس الذين يعيشون معهم . كما تشمل يهود مصر والعراق واليمن وشمال افريقية . وهؤلاء يمتازون بصفات سلالة البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة وأقرب إلى السفاردية منها إلى الاشكنازية .

مما تقدم يتبين أن اليهودى نتاج بيئته التى يعيش فيها ويتأثر بأهلها ويتصاهر معهم وتختلط أصوله بأصولهم . وقد بين فشبرج فى كتابه عن اليهود أنهم يختلفون فى مميزاتهم الجنسية من مكان إلى آخر تبعاً لاختلاف هذه المميزات الجنسية بين الشعوب التى يسكنون بين ظهرانيها . هذا إلى أن اليهود فى عصور الاضطهاد الطويلة التى تعرضوا لها فى أوروبا وغيرها من العالم القديم امتازوا بمميزات سيكولوجية ليس إلى قياسها بمقاييسنا الجنسية من سبيل . وربما أكسبهم ذلك سحنة خاصة يغلب عليها الحزن والأسى . يطلق عليها — مع كثير من الحذر والحيطة — اسم السحنة اليهودية . ولكن هذه السحنة وليدة الجيتو Ghetto وحارة اليهود أو قاع اليهود إلى آخر ما يطلق على أحيائهم الخاصة فى البلاد التى تفصلهم عن بقية الأهلين . وسرعان ما تزول هذه السحنة إذا تحطم جدار الجيتو أو نعموا بمزيد من الحرية الشخصية كما هى الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا .

مثل هذا الخليط من الناس الذى يتمثل فى الاشكنازى الرّبع القامة — العريض الرأس — وفى التقاطيع الغليظة والسيفاردى النحيل الدقيق التقاطيع والألمانى الأشقر ذى العيون الرمادية أو الزرقاء واليمنى المتوسط القامة الضيق الرأس القليل الشعر . كل هذه الأخلاط من الناس قد بدأت تهاجر هجرات منظمة منذ سنة ١٩٢٠ . والتاريخ وحده هو الذى سيحكم فى الأجيال القادمة على إمكان صهر هذه السلالات المختلفة المتباينة الثقافة فى سلالة متجانسةواحدة .
وهو أيضاً سيحكم على علاقته بالعربى الفلسطينى والعربى فى جيران فلسطين .

٨ — ملاحظات عامة وتلخيص :

١ — ذلك ما يمكن أن يصل إليه الباحث عن تطور سكان فلسطين حتى الأمس القريب فلا يعلم إلا الله ما تكون عليه الحال فى مستقبل الأيام . ولا سيما بعد أن أجبر على الخروج من فلسطين هذا العدد الضخم الذى شرد فى الآفاق . وبعد أن فتحت أبواب البلاد على مصاريعها لعدد أضخم من شذاذ اليهود ولذلك وجدنا من العبث إيراد إحصائية بسكان فلسطين حسب الدين أو العنصر ولكننا نكتفى بالإشارة إلى خريطة توزيع السكان فى المدن والقرى والدساكر الفلسطينية التى أعدتها لجنة التحقيق الانجلوأمريكية عام ١٩٤٥ حسب الدين (١) . فهى فى الواقع تعد وثيقة لمرحلة تاريخية وصلت إليها البلاد فى ذلك الوقت . ونكتفى بالإشارة أيضاً إلى أن أغلبية اليهود كانت تسكن — كما لا تزال — فى السهل الساحلى شمالى غزة حتى حيفا . وفى سهل مرج ابن عامر أما هضاب الجليل والسامرة ويهوذا فأغلبية سكانها من العرب .

٢ — يلاحظ أن معظم البحث فى سلالات فلسطين القديمة يقوم على أساس تاريخى . وهذا أساس سليم . أما فى العصر الحديث فلم يقم باحث بأخذ مقاييس انثروبولوجية فى أى جزء من أجزاء فلسطين اللهم إلا أبحاث فابسنبرج عن يهود السامرة ثم بعض ملاحظات انثروبولوجية عامة للأستاذ كابرز عن فلسطين كجزء من اقليم الشرق الأدنى . أما الأبحاث الخاصة باليهود فكانت على أساس اقليمى قام بها الباحثون من أجزاء مختلفة من العـــالم حيث يوجد اليهود . وأهمها الدراسات التى قامت عن يهود نيويورك بوصفهم يمثلون قطاعاً يهودياً من مهاجرى شرقى أوروبا ووسطها وربما من جنوبيها وشماليها أيضاً .

٣ — من الطريف أن يلاحظ طلاب الجغرافيا أثر العوامل الجغرافية فى توجيه الهجرات البشرية إلى فلسطين . ولا نغالى إذا قلنا فى صبغ الشعوب المستوطنة فى أجزائها المختلفة بصبغة خاصة واعطائهم صفات خاصة . يختلف بعضها عن البعض الآخر فى التفكير والسلوك .

---

(١) Maps Relating to the Anglo-American Committee of Enquiry Report, Lausane, April, 1946.

فقد تتبعنا هجرات الشعوب إلى فلسطين خلال التاريخ . ونستطيع أن نلخصها الآن فى قسمين . قسم هاجر من الصحراء واستقبلته سهوب جنوب فلسطين المتوسطة الارتفاع التى تتحول بالتدريج من نبات البحر الأبيض المتوسط إلى حشائش الصحراء حتى تنتهى أخيراً فى الصحراء . وقسم هاجر من عبر البحر المتوسط واستوطن السهل الساحلى . أما المصدر الأول للهجرات فكان أبقاها أثراً وأكثرها دواماً . ولولا اصطناع الحدود السياسية التى لا يعترف بها البدوى لظل أبد الدهر يعمل على تغذية فلسطين بدم بدوى جديد. لا يلبث أن يستقر ويستوطن البلاد ويعيد لها حيويتها ويربطها بماضيها فى الصحراء منذ عهد إبرهيم ولوط واسماعيل عليهم السلام . وأما المصدر الثانى فلم يكتب له هذا الاستمرار والدوام ، ولكنه دفع إلى البلاد بعنصر هام هو عنصر الفلسطين فى التاريخ القديم ونستطيع أن نقرر أنهم العنصر البحرى الوحيد الذى قدر له أن يكون ذا شأن فى فلسطين . فلقد جاء الاغريق بعدهم وأسسوا مستعمراتهم التجارية ثم غادروا البلاد ومن بعدهم الصليبيون وأعادوا الصلة بين شرقى البحر المتوسط وجنوبيه وغربيه وشماليه ولكنهم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم وطردوا من البلاد طرداً ، بعد غزوات صلاح الدين الموفقة . والآن يفد يهود أوروبا وقصتهم معروفة . وينزلون منازل الصليبيين فى فترة من فترات العصور الوسطى . والاغريق والرومان فى التاريخ القديم وليس من العسير التكهن بمصيرهم الآن .

٤ — نستطيع أن نعتبر أن عرب فلسطين هم سكانها الأصليون . النتيجة أو الخلاصة الانثروبولوجية لجميع الهجرات التى وفدت إليها واستوطنتها وانصهر بعضها فى البعض الآخر . وانتهى إلى شعب واحد أصله كنعانى تأثر بمن آثر البقاء فى البلاد من بنى اسرائيل . أو اعتنق المسيحية فى قرونها الأولى . وأدمج فى عنصر الفلسطين . ولم يكن ذلك صعباً أو عسيراً فكلاهما من سلالة البحر المتوسط . وقد ظل ذلك العنصر القديم — العنصر الكنعانى — يتمثل الهجرات البدوية خلال العصور التاريخية حتى الأمس القريب .

٥ — قد وجدنا صعوبة فى اعتبار اليهود سلالة اثنولوجية واحدة اللهم إلا إذا سلمنا بأن الفريق العريض الرأس منهم آثر الهجرة من فلسطين إلى شرقى أوروبا ووسطها . وأن الفريق الطويل الرأس آثر الهجرة إلى جنوبيها وشماليها الغربى وفى هذا صعوبة منطقية . أما اليهود غير القوقازيين فنترك أمرهم جانباً . فإن دعاة السلالة اليهودية لم يشيروا إليها من قريب أو بعيد . . .

محمد السيد غلاب

